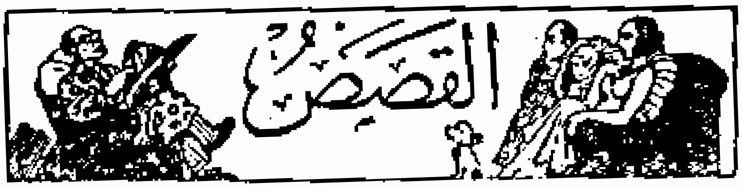

الأغـــلال

أقصوصة عراقية

للأستاذ شاكر خصباك

— أنظرى إلى ذلك الخال يا سعاد ... إنه يتعقبنا على دراجته شأنه كل يوم .

قالت رفيقتى إحسان هـذا وهى تشير إلى الخال الذى اعتاد أن يستقبل أفواجنا كلما غادرنا المدرسة . فقلت فى عدم اكتراث دون أن أحول إليه أنظارى : مالنا وله ؟!

فنظرت إلى من زاوية عينيها وانفرجت شفتاها عن ابتسامة ماكرة . وفجأة اشتد ضجيج جرس دراجة وراءنا ، فالتفتت إحسان خلفها فى حركة سريعة ، ولكننى لبثت متجهة بأنظارى متجهة إلى الأمام دون أن تطرف عيناى . ومرت لحظة خيل إلى أنها قاربت الساعة والجرس يواصل صخبه ، ثم رأيت الخال ينطلق بعجلته أمامنا فتبعته عيناى فى حنق وغيظ ، وتناهى إلى فى حنق وغيظ ، وتناهى إلى صوت إحسان كريها ثقيلا وهى تسائلنى متخابثة : ألم تلاحظى شيئاً على هذا الخال يا سعاد ؟!

فأجبتها فى صوت حاولت أن يكون هادئاً : كلا مالى وله ؟! لماذا يجب أن ألاحظ أمثاله ؟

فندت عنها ضحكة مثيرة وأجابت بلهجة خبيثة : من الغريب أن يخفى عليك غرض تلكؤه الغريب .

فهتفت فى خشونة : ما هذا الكلام السخيف ؟! أمكلفة أنا برصد حركات كل من يمر بى فى الطريق ؟! هذا شأنك دائماً ... تذهلين نفسك بالتوافه .

فالتفتت إلى فى استياء وهتفت فى تحد : بل إنك لتتظاهرين بعدم الفهم . إن ذلك الخال يحبك وما فى ذلك ، وما حضوره ساعة انصرافنا من المدرسة إلا ليراك . .

وسكتت لحظة ثم واصلت القول وهى تضحك فى سخرية : إلا ليراك من دون الطالبات جميعاً !

فصحت فى وجهها بلهجة ثائرة : هكذا أنت دائماً . . تحسدين غيرك من الفتيات . حسناً ، إنى جميلة محبوبة وكثير من الفتيان الممتازين يعجبون بى أراقك ذلك أم لم يرقك ، ولن تجديك هذه السخرية السخيفة نفعاً .

ثم ألقيت عليها تحية الانصراف فى غضب وابتعدت عنها موسمة الخطى . وحين بلغت الدار وصفقت الباب ورائى تنفست الصعداء كأنى ألقيت عبئاً ثقيلا عن كاهلى . وتناولت طعام العشاء بدون شهية وذهنى مشتت تائه ، ولما أويت إلى الفراش واستعرضت حوادث النهار غمرتنى آلام عنيفـة حادة . وأغمضت عينى محاولة إبعاد صورة الخال عن مخيلتى ، لكنها ظلت تتراءى لى فى بشاعة ، بدوى جرس دراجته كأننى فى سوق الحدادين .

استيقظت فى الصباح منقبضة الصدر واهنة القوى ، وتبدت لى المدرسة شبحاً مفزعاً مخيفاً . ولم أستطع طوال ساعات الدروس أن أرفع أنظارى إلى إحسان شأن من ارتكب فعلة منكرة توردة موارد الخجل . وما أن أعلن الجرس انتهاء الدروس حتى اجتاحنى شعور بالضعة والهوان . وعتبت من صميم قلبى لو أن « الفراش » سها من دق الجرس ودعا الدرس الأخير يمتد بنا ساعات أخر .

كنت أود أن أتجنب رؤية الخال بأى ثمن كان ، فقد كان يتمثل فى ذهنى فأحس بالاشمئزاز وتتملكنى رغبـة فى الفرار والاختباء من الأنظار .

حاولت أن أختفى من عيون رفيقاتى حالما اجتزت باب المدرسة فأسرعت الخطو وأنا أتلفت حولى فى خجل وحـدة وعناب . وكان الخال يتعقبنى بدراجته تارة يدنو منى وأخرى يبتعد عنى . ولمحت عامر يمشى فى موكب من زملائه الطلاب بطلعته البهيـة ولباسه الأنيق ، فهممت أن أجرى إليه وأحتمى به ، ولكن سرعان ماتذكرت أنى لست سوى معجبة خجولة لا يعرف عنها أى شئ . فعضضت على شفتى فى خيبـة يمازجها الغيظ ، وتابعت سيرى فى عجلة وارتباك وأنا أغمغم فى حسرة : يا لالحظ العاثر !

* * *

ذاعت قصة غرام الخال بى وتلقفتها ألسنة زميلاتى بالتهليل والترحيب ، فلابد للألسنة أن تثرثر فى موضوع ما . ولا يداخلنى شك أن إحسان قامت بالنصيب الأوفر فى نشر القصة ، لا سيما

وأن علاقتنا انفصمت عراها إثر ذلك اليوم. ولم يكن بوسعي أن أحتمل البسمات الشامتة التي أخذت ألمحها على شفاه زميلاتي، أو أن أطيق النظرات الساخرة التي بدأت أقرأها في عيونهن، وكم تمنيت لو تنشق بي الأرض وتبتلعني حين يعلن الجرس أوان الانصراف وتنطلق أفواجنا إلى الشارع، فتتأهب زميلاتي للتمتع بمنظر الحال العاشق. كنت أحس أنني أوشك أن أذوب خجلا وذلة ومهانة. وكنت أضرع إلى الله أن يقع له حادث ... حادث يعوقه عن الحضور. لكنه ظل يواظب على الحضور في الموعد المعين كل يوم كأنه المتدين يؤدي الصلاة في ميقاتها! ولم يكن باستطاعتي أن أتخذ أي إجراء ضده لأنه لم يتحرش بي أبداً. لكن أعصابي بلغت من التوتر ذات يوم حداً عنيفاً، فلم أشعر إلا وأنا أنفجر صائحة في وجهه حين اقترب مني بدراجته: «ألا تكف عن ملاحقتي وتنقذني من شكلك القذر ودراجتك الكريهة؟!» فاصفر لونه واحمر، وواصل بعجلته في هدوء دون أن يتفوه بلفظ واحد! وكانت عيناه تلمعان ببريق كئيب وشفتاه ترتجفان في انفعال شديد! ...

وأقبل اليوم التالي وإذا بالمشهد اليومي يفقد إحدى عناصره ولأول مرة، وهو دراجة الحال! وشعرت بسرور وارتياح مشوبين بقلق خفي. وخيل إلي أنني تخلصت من مرآه نهائياً، ولكن سرعان ما تبدد ظني، إذ لمحته منزويا وراء إحدى أعمدة الشارع فأحسست بقليل من الكدر. وكان على غير عهده، يرتدي جلبابا نظيفاً وسترة جديدة، وينتعل حذاء لامعا، ويضع فوق رأسه طاقية مزركشة. وكان وجهه نظيفاً كأن اغتسل منذ برهة وجيزة وما كاد نظره ينالني حتى انطلق يحدق في كالمأخوذ. ولم أستشعر لنظراته وقتاً شيئاً كالذي كنت أحسه من قبل، بل خالجني شعور من يقع بصره على مشهد يبعث على الشفقة والرثاء. لكن هذا الشعور لم يدم طويلا، فقد عاودني في الأيام التالية الإحساس بالغيظ والحنق كلما مررت به في ركنه المعهود، ولمحته منزويا في ترقب وشوق. وكنت أصمم كل يوم على الامتناع عن ملاحظته حين مروري بموضع انتظاره، ولكن عيني كانت تنجذب إلى إلى تلك الزاوية بالرغم مني. واستفزني هذا الحال أشد الاستفزاز فعقدت العزم على ارتداء النقاب. ومع أن فضول زميلاتي في مراقبته كان قد فتر غاية الفتور حتى لم يعدن يأبهن لأمره، لكن رغبة شديدة ألحت علي بإخفاء وجهي! ولا أدري كيف فشلت في قهر تلك الرغبة مع أنني كنت على رأس الطالبات الثائرات على الحجاب، بل الداعيات إلى نبذ العباءة لا البرقع فقط. وقلت لنفسي في شيء من العناد والتشفي وأنا أبارح المدرسة والبرقع يحجب وجهي لأول مرة: «لن يستطيع أن يراني بعد الآن». وصح ما توقعته، فقد مررت به وهو منزو في ركنه المعهود فلم يعرني التفاتاً، وظل يبحث عني بين الطالبات بعينين مشوقتين.

ويبدو أنني أثرت قلقه بتصرفي الجديد. إذ برز في اليوم التالي من ركنه المعهود وظهر على الرصيف وهو مسند الظهر إلى العمود الضخم. وكان يتفحص أسراب الطالبات بوجه متقلص العضلات وعينين مضطربتي النظرات. وأحسست بالسرور والارتياح حين مررت به ورأيته جاداً في البحث عني بين فتات التلميذات دون أن يعثر لي على أثر.

ومرت أيام ثلاثة على ارتدائي النقاب والحال ملازم لموضعه على الرصيف يتفحص وجوه الطالبات في قلق ولهفة. وكنت قد اعتدت على النقاب بعض الشيء خلال تلك الأيام بعد أن كابدت في اليوم الأول من ثقله على وجهي أشد الضيق وأحسست أن أنفاسي تكاد تختنق. وفي ظهيرة اليوم الرابع حدث ما لم أكن أتوقعه، فما كدنا نتدفق من باب المدرسة كالسيل حتى فوجئت به فوق عجلته وقد عاد إلى زيه القديم؛ فبدى قذر الملابس عاري الرأس حافي القدمين! ومضى يخترق أفواجنا في تأن وهو يتمعن في وجوه الطالبات في اهتمام. وكان يصل إلى رأس الشارع فيقفل راجعاً إلى باب المدرسة، ثم يعاود السير إلى رأس الشارع ثم يعود من حيث بدأ، إلى أن احتجب عن بصري. وغمرتني فورة من العواطف المتضاربة، وأنا أرقبه يروح ويجيء فوق عجلته والمرارة تفيض من قسماته. وأحسست بلذة يشوبها كدر وارتياح يعكره قلق مبهم.

ورأيته ساعة العصر وهو يتجول بين جموعنا في خيبة وقنوط والكآبة تلف ملامحه بغشاء كالح. وكنت متجهة إلى الدار وأنا خالية الذهن من أية فكرة معينة. لكنني أحسست بغتة برغبة قوية في إقتفاء أثره. ولم أتردد في تحقيق تلك الرغبة طويلاً، إذ شرعت أتلكأ في السير حتى أصبحت في أعقاب الطالبات. وتسنى لي بذلك أن أرصد حركاته في حذر واحتراس. فما أن أيقن من خلو المدرسة من التلميذات حتى عاد أدراجه يسوق عجلته في يأس

وخذلان . وبلغ دكان لكراء الدراجات فترجل عن عجلته وسلمها لصاحب الدكان بعد أن نقده مقداراً من المال . وسلك الشارع المؤدي إلى «ميدان الشرطة» فتبعته عن قرب والخوف والوجل يشدانى إلى الوراء فى حين تدفعنى رغبة عارمة إلى الأمام . انتهى به السير إلى الفسحة الممتدة أمام سوق البقالين ثم عرج على ناصية الشارع المجاورة لمركز الشرطة وجلس إلى نفر من الحالين الذين اعتادوا أن يتخذوا تلك الناحية مركزاً . وتوقفت بالقرب من دكان بقال بجانب الناصية متظاهرة بالرغبة فى الشراء بينما انطلقت عيناى تدوران فى المكان . وناوله أحد الجالسين عدة العمل وسأله : « ألم تر ها ؟ » فهز رأسه فى خيبة ومرارة دون أن ينطق حرفاً . فاندفع آخر ذو أنف معقوف كمنقار البومة وبنيان متين كالفيل يقهقه فى سخرية لاذعة ، فسأله فى خشونة وهو مقطب الجبين : علام تضحك ؟ !

فأجابه ذو الأنف المعقوف فى استخفاف : على جنونك يا حسن . ألا يدعو حالك إلى الضحك ؟! أية ساعة نلقاك تجدك عابس الوجه مكتئب القسمات برم بالحياة ، لماذا ؟! ألأنك تحب تلك الفتاة .. !

فسأله بصوت أجش : وماذا فى ذلك ؟ ! أليس من حق أن أحب ؟ ! ألم يخلقنى الله كما خلق أولئك الشبان الأنيقين الذين يحل لهم الحب ؟ ! كلا هنالك من فرق بيننا أن الله رمانى فى أحضان أب معدم فاضطررت أن أشتغل حمالا لأكسب لقمة العيش ، بينما خص أولئك الشبان بآباء أثرياء يرسلونهم إلى المدارس ويكسونهم بالحلل الغالية .. وإن لله حكمة فى خلقه !

فهتف ذو الأنف المعقوف بلهجة ساخرة : كن قلقاً وكفرا فنحن نعترف أن من حقك أن تحب ، بل وتحب تلميذة جميلة من بنات الأثرياء ! ولكن ، أتظن يا قيس أن ليلاك ستتنازل يوماً وتجود عليك بنظرة أو ابتسامة ؟ !

فقاطعه فى انفعال : اسمع يا جاسم . لا تتدخل فى شئونى . أنا أدرى منك بما أفعله .

فاستطرد ذو الأنف المعقوف يقول فى تهكم : طبعاً أنت أدرى بشئونك ... لذلك أحببت تلك الفتاة ! ... محال يحب فتاة مثقفة غنية ... !

وسكت برهة ثم صاح فى هزء كمن تذكر أمراً : اسمع يا قيس ، إنى مستعد لمراهنتك على أن ليلاك قد اختارت لها صديقاً من طلاب المدارس كما هو شأن معظم التلميذات .

وكنت أرقب النقاش بنفس متوثبة وقلب سريع الخفقان ، تتملكنى الغيظ حين نطق ذو الأنف المعقوف بعبارته الأخيرة ، ولكن سرعان ما اهتزت جوانب نفسى بسرور عظيم عندما شاهدت حسن يقفز إليه فى جنون ويمسك بخناقه وهو يصرخ هائجاً : لا تدنس اسم هذه الفتاة بلسانك القذر ... لا تدنسه ... لا تدنسه ...

فسدد إليه ذو الأنف المعقوف لكمة ألقته على الأرض ، واشتبك الإثنان فى معركة حامية فى حين بدأ الناس يتجمعون حولهما وهم يحاولون فض المعركة ، فانسللت فى طريق ونفسى نهب لعواطف الخوف والألم والإشفاق .

* * *

أقبل الليل ..

وجلست إلى كتبى لمذاكرة دروسى . عبثاً أن أفهم شيئاً وذهنى يعج بهذه الصور . مراجعه الحزينة تخترق صفوفنا فى ملل .. عيناه المتحجرتان أسى تتصفحان وجوه الطالبات فى لهفة وإعياء .. ذو الأنف المعقوف وضحكاته الساخرة الكريهة .. المعركة العنيفة التى اشتبك فيها الإثنان ! ويئست من استيعاب صفحة مما أقرأه فأطبقت الكتاب فى ضيق وقمت إلى سريرى .

اضطرب نومى بأحلام صاخبة اتصلت بين اليقظة والرقاد . وكان حسن محور تلك الأحلام تارة أراه فى صورة كريهة تثير فى قلبى الحنق والاشمئزاز ، ويهم بالقبض على ذراعى فأنفلت من يديه مذعورة ، وأركض أمامه خائفة وجلة وهو يعدو ورائى وزميلاتى يقفن على طول الطريق وهن يرمقننى بنظرات ساخرة ويقهقهن هازئات . وطوراً يتمثل لى شاباً أنيقاً يرتدى السترة والبنطلون ، ويغادر مدرسة البنين الثانوية المجاورة لمدرستنا فى موكب من رفاقه الأنيقين ، وهو يسير بينهم رافع الرأس شامخ الأنف ، وأمر بالقرب منه أنا وزميلتى إحسان ، فيلتفت إلى فى اهتمام ويستقبلنى بنظرات تفيض بالهيام . فتثير تلك النظرات فى قلبى أعذب المشاعر وأحلى الأحاسيس . وحيناً أرانى واقفة فى أرض خضراء واسعة أتطلع إلى الأفق البعيد ، وفجأة يبرز إلى وهو يمتطى صهوة جواد جميل ، فينتشلنى من الأرض ويردفنى وراءه ، ثم ينطلق بنا الجواد خبباً ونفسى تهتز نشوة وطرباً .

واستيقظت في الصباح متأخرة عن ميقات يقظتي اليومي . الصداع يلهب رأسي والضيق يكاد يكتم أنفاسي . وتناولت فطوري في غير شهية ، وقصدت المدرسة وأنا منقبضة النفس حزينة الشاعر . تلقيت الدروس ضجرة متبرمة ، ولما دق جرس الدرس الأخير زايلني بعض ما أحسه من ضيق وانقباض ، وبادرت إلى الخروج وأنا أتوقع أن أرى حسن فوق دراجته يخترق الصفوف ، ولم يكن ليزعجني التوقع تلك اللحظة ، بل أحسست نحوه بشيء من الرضا والاطمئنان . ولشد ما ذهلت حين تمامت معظم الشارع دون أن يبدو له أثر . واستولى على استغراب شديد يمازجه شعور بالاستياء والقلق ، وظللت سائرة في خطى مضطربة وأنا ألتفت حول طول الطريق ، متوهمة في كل صوت عجلة تدرج ورائي . وأكسبت أذناي في تلك الدقائق قوة مدهشة ، فكنت أنتبه إلى أدق صوت ، بل لعلني كنت أتخيل سماع بعض أصوات وهمية . ومع ذلك فقد بلغت الدار دون أن يلوح لدراجته ظل ... !

انتظرت فترة العصر في لهفة لا تطاق . وكنت خلال ساعات الدرس أحدق في ساعة معصمي بين لحظة وأخرى متأففة متململة كأني أستحث عقاربها على الإسراع . وما أن طرق سمعي رنين الجرس حتى تقزت نحو باب الصف في رعونة أثارت استغراب معلمة التاريخ التي تعهد في الرزانة والتعقل ، لكنني لم أعبأ بدهشتها ، وهرعت إلى الشارع وعيناي تكادان تسبقان جسمي إليه . وسرعان ما اجتاحتني موجة عارمة من المشاعر زاخرة بالمرارة والاشمئزاز والخذلان حينما ألفيت الشارع خالياً من دراجته ، وصاحبتني تلك المشاعر الخانقة طيلة اليوم .

* * *

مضى أسبوع دون أن يبدو لحسن أثر : وكنت أثناء أيام الأسبوع أتوقع رؤيته في شغف كلما غادرت المدرسة في فرصة الصباح والمساء ، وما أن يخيب ظني حتى يحتلا كياني بأحاسيس يمتزج فيها الضيق بالأسى والثورة بالحنق . وتصارعت الأفكار والهواجس في رأسي كل منها يعزو غيابه إلى سبب . وكنت أجزم أحياناً بأنه في السجن يتحمل عقوبة المركلة . ثم أعود حيناً آخر فأعتقد أنه في المستشفى يداوي الجراح التي ألحقتها به المركلة . وحيناً ثالثاً أنفض ذيئك الخاطرين ويعجزني ارتباك الخيال عن افتراض سبب معين !

وفي الليالي الثلاث الأخيرة من الأسبوع لفت نظري ظاهرة جديدة تحت نافذتي . فمن عادتي أن أفتح نافذة غرفتي المطلة على شارع عرضي وأمدّ رأسي في الفضاء بضع دقائق لأملأ رئتيّ من هواء الليل العذب قبل أن أتهيأ للرقاد وبعد أن أفرغ من استذكار دروسي . فكان نظري يقع على شبح شخص يتحرك تحت النافذة في تسكع . وبما أن مصباح الشارع الكهربائي بعيد عن دارنا فإن الظلام يغمر هذه البقعة فلا يتسنى أن أميز شكل من يدخل في نطاقها . وخلت للمرة الأولى والثانية والثالثة أن هذا الشخص عابر سبيل . لكنني ما عتمت أن أيقنت أن تسكعه تحت نافذتي عن قصد وتعمد . وما أن رسخ في ذهني هذا الاعتقاد حتى أصبت بنوع من الهوس ، فكنت أطل على الطريق في الليالي الأخيرة بين ساعة وأخرى فألحظه يتحرك تحت النافذة في نفس الموضع . وكان يتوارى عن أنظاري كلما أبرزت رأسي . وعجبت لحاله ... من يكون ؟ ! وماذا يعني سهره تحت النافذة ؟ ! ولماذا يحاول الاختفاء عن عيني ؟ !

ولطالما ارتددت عن النافذة وتحولت إلى المرآة أعلّ فيها مفاتني — لاشك أنني رائعة الجمال ... عينان سوداوان واسعتان . أنف صغير جميل . شعر أسود وحف ينسدل على كتفي كالحرير . قامة شامخة مترنحة بخصرها الدقيق وصدرها الناهد . ثم هذه النقرة الطينة التي تبدو في وجنتي كلما افترت شفتاي عن ابتسامة صغيرة وصيح أنني سمراء ، لكن لوني خمري كما يقول الشعراء .

وكانت تلك الأفكار تبعث في قلبي نشوة هادئة ، لكنها لم تكن لتصرفني عن أمر هذا العاشق الجديد . فكنت أنفق الساعات وأنا أتقصى تصرفاته . وكنت أحدس أحياناً كثيرة أنه حسن نفسه . لكن ميلي إلى الاعتقاد أنه إما أن يكون طريح المستشفى أو يكون السجن كان يضعف هذا الحدس .

مرت أيام ستة على العاشق الجديد وهو مقيم على عهده ، يروح ويجيء تحت نافذتي كل مساء . وبينما كنت عائدة من المدرسة عصر اليوم السابع أعترف نظري — على سبيل المصادفة — إلى

عطفة مهملة بالقرب من المنزل كنت أرفع البرقع في العادة حين أجاوزها ، وإذا بي ألمح حسن قابعاً فيها . وخفق قلبي في شدة وعنف ، وساد الارتباك مشاعري واضطربت حركاتي ، فحولت عنه عيني سريعاً ، وأوسعت خطواتي حتى كدت أهرول . ولما بلغت الدار ارتقيت السلالم وثباً واتجهت إلى مخدعي من فوري واستلقيت على الفراش وأحاسيس النشوة والفرح تجيش في صدري .

وخيل لي شبح العاشق الجديد وهو يخطو تحت النافذة في تلكؤ ، فوجدتني أجزم بأنه حسن نفسه ... حسن نفسه بقامته الفارعة وكتفيه العريضين وملامحه القوية الصارمة ، وإن له قامة حسن الطويلة النبيلة وإن لم تبن قسمات وجهه .

وما أن أسدل الظلام أستاره حتى هرعت إلى النافذة فرأيت الشبح يتحرك بعيداً مختفياً عن أنظاري ، فارتددت عن النافذة .

وتهاويت على المقعد صامتة . لكنني ما عتمت أن قفزت على قدمي وأنا أحس كأنني حبيسة وراء جدران ضخمة . وانطلقت أذرع أرض الغرفة بخطوات سريعة مضطربة وأنا أرزح تحت وطأة رغبة جارفة في الخروج إلى الشارع . وضجت بتلك الرغبة مشاعري واختنق صدري بصراخها فأدركت أنني أقاومها عبثاً .

وارتديت ملابسي على عجل . واستأذنت أمي في زيارة زميلة لغرض يتعلق بالواجب المدرسي . ووجدت باب الدار خلفي وقلبي يسرع في دقاته وأعصابي ثائرة ونفسي متوثبة ، وانطلقت وراء المنزل وسلكت رأس الشارع الثاني ، ثم ظهرت أمام العاشق الجديد فجأة بحركة مباغتة . كان حسن نفسه بلحمه ودمه وهو منكمش تحت النافذة . ورفعت البرقع عن وجهي وأنا مفترة الثغر عن بسمة رقيقة ، ولبثت بضع لحظات أحدق في وجهه بنظرات تنبض بالعطف والإغراء وانتابته حالة من الذهول الشديد ، فجمد في موضعه وهو متسع العينين دهشة ، فاغر الفم في بلاهة وتبلد كمن لا يفهم لما يراه معنى . ثم واصلت سيري بخطوات متمهلة وأنا ألتفت ورائي بين لحظة وأخرى كأنني أدعوه إلى تعقبي . وابتعدت عنه وهو ثابت في وقفته كالتمثال ، وكدت أيأس من استجابته للنداء ثم رأيته يتحرك فجأة في ذهول كأنه واقع تحت سلطان قوة خفية .

وغاب مارنا عن أنظاري بين المنعطفات التي اجتزتها ، ودخلت دربا يكاد يكون مقفراً من السابلة ، وحسن لا يزال يتبعني بخطوات بطيئة مترددة ، وكلما ازداد اقترابه مني اشتدت ضربات قلبي واندفع الدم في شراييني حاراً لاهباً وتغلغلت في أعماقي لذة مبهمة . ودنوت من منعطف يؤدي إلى شارع عام فتوقفت عن السير ، ودرت على أعقابي بحركة بطيئة وانتصبت أمامه وجها لوجه وعلى ثغري ابتسامة رقيقة . كنت أشعر تلك اللحظة أن رأسي قد التهب وجسمي قد تخدر وأخذ يرتعش تحت وطأة تيارات غريبة كمن مس بالكهرباء . أما هو فوقف صامتاً وكل جزء من أجزاء وجهه يعكس عواطف قلبه المصطخبة . ومرت لحظة صمت ، ثم همهم بصوت مرتعش وشفتين مرتجفتين : « أنا عبدك » .

لا أدري ماذا حدث لي تلك اللحظة ، ولكنني أذكر أنني لمحت عاصي ينعطف من الشارع ويدخل الطريق ، فاندفعت أصيح بحركة لا إرادية : « أنقذوني .. أنقذوني » . فهرع إلي وهو يردد باهتمام : « ماذا بك يا آنسة ؟! ... ماذا بك يا آنسة ؟! » فأجبته بلسان متلعثم وأنا أشير إلى حسن : « إنه حاول تقبيلي » . فتحول إليه مزمجراً ، وراح يهدده بالويل إن لم يدعني وشأني .

ولن تمحى صورة حسن الذاهلة من ذاكرتي أبداً . فقد تحجر في موضعه ، وراح ينقل أنظاره بيني وبين عاصي في فزع كأنه تحت رحمة كابوس مخيف . ولم ينطق كلمة واحدة ، بل أتى على نظرة تدفق ألما ومرارة وتعاسة ، ثم ولى يخطو في تخاذل كأنه يرزح تحت حمل ثقيل ، والتفت إلى عاصي وقال بأدب : « لا أظنه سيضايقك مرة أخرى أيها الآنسة .. ليلتك سعيدة » . ووقف ينظر إلي برهة كأنه ينتظر أن أقدم له شكري ، لكن لساني انعقد من الكلام وخوى رأسي من الأفكار . فهز كتفيه وسار في طريقه . وأردت أن أسترققه لأقول له شيئا ، لكن قوة طاغية جذبت رأسي إلى الجهة التي سلكها حسن ، فأتبعه بأنظاري وأنا أحس أنني سأنفجر من شدة الغم والألم والضيق . ثم ارتد إلى طرفي مبللا بالدمع حينما تلاشى شبحه في النور الخافت .

القاهرة

شاكر خصباك